شعرية الخطاب السردي في رواية "عابر سرير" لأحلام مستغانمي

أ - رحماني علي
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر

يعتمد النص الأدبي في وجوده على شاعريته على الرغم من أنه يتضمن عناصر أخرى وهو ما نلمسه بمجرد أن نطأ العتبة الأولى لرواية أحلام مستغانمي الموسومة بـ: "عابر سرير" حتى يفاجئنا الخطاب السردي وقد استعار لغة الشعر بدلا من النثر وربما هو في هذه الوجهة مقصود من قبل كاتبة تعتز بعربيتها وعروبتها، أن هذا الاستهلال الشعري الذي تطاول إلى أكثر من عشرين صفحة هو الدافع إلى فرض عنوان شعرية الخطاب السردي كملمح أساسي وخاصية مهيمنة على الرواية.

يكتنف مصطلح " الشعرية " الكثير من الالتباس نتيجة تعدد معانيه وتنوع تعريفاته، الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى القول بأن العثور على تعريف موحد لهذا المصطلح هو أشبه بالعثور على"حجر الفلاسفة"[(1)]

وبالرغم من أن الشعرية مصطلح حديث النشأة , إلا أننا نجد جذوره متصلة في الآداب العربية القديمة حيث أنه , لم يستخدم بهذا المصطلح , وكان يطلق عليه تسميات أخرى , فنجد مثلا " أبا الحسن محمد بن طباطبا العلوي", يطلق على الشعرية " حسن الديباجة " , كذلك نجده أيضا عند " محمد بن سلام الجمحي " بمصطلح الديباجة " .

أما الشعرية بمفهومها وباستخدامها الحديث يعرفها " تودوروف " بقوله: " الشعرية تعنى بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي , أي الأدبية"[(2)].

وهو يعني بكلامه هذا أن اهتمام الشعرية منصب نحو الكلمة لذاتها وبذاتها .

– وقد وصف جان كوهن لغة النثر التقريري , بأنها لغة الصفر في الكتابة, فحينما " تكون لغة الإنطلاق ولغة الوصول معا نثرا, فإن المستوى الشكلي يفقد كل قيمة مميزة , فالنثر هو بالتحديد درجة الصفر في الأسلوب"[(3)] أي أن لغة النثر هي لغة المعيار

غير قابلة للتأويل, فإن لم تتطابق الدلالة مع المعاني الأولية للسياق, عد ذلك انزياحا أو الخروج عن لغة النثر , والدخول في اللغة الشعرية, التي تعني " كل ما ليس شائعا, ولا عاديا, ولا متطابقا للمعيار العام المألوف"[4].

أما " رومان جاكبسون " , يرى أن الشعرية " تتجلى في كون الكلمة تدرك بوصفها كلمة , وليست مجرد بديل عن شيء يسعى, ولا كانبثاق للانفعال, وتتجلى في كون الكلمات , وتركيبها ودلالاتها وشكلها الخارجي والداخلي ليست مجرد إمارات مختلفة عن الواقع , بل لها وزنها الخاص , وقيمتها الخاصة"[5], أي أن المقصود بذلك أن الكلمة عنده تدرس دون ربطها بأي سياق خارجي.

ملامح الشعرية:

ا- **المفارقة:** هو مصطلح نقدي عرف منذ القديم, مر بمراحل متعددة عبر أزمة مختلفة , اتخذ عدة معاني وتفاسير مغايرة في كل مرة , لكن تلك التفاسير لا تبتعد كثيرا عن المقولة التي ترى أن : " المفارقة تقوم على عبارة تبدو متناقضة في ظاهرها , غير أنها بعد الفحص والتأمل تبدو ذات حظ لا بأس به من الحقيقة "[6].

معنى ذلك أن التناقض الظاهري , يجعل المتلقي يواجه موقف غير متسق , لكن بعد إمعان النظر وسبر الأغوار ينكشف له عالم من المفارقة والأراء, " فالمفارقة إذا تقدم بهذا التناقض الظاهري ألية تعين المبدع على الإنفلات من دائرة مباشرة, والبساطة والدخول في أفاق الضبابية الجمالية , والشفافية البعيدة"[7] .

وبالمفارقة يعبر الفنان عن موقف ما , على نحو مختلف كما يستلزمه ذلك الموقف, وللمفارقة أهمية لا تنكر في مجال الأدب ,حين تمنحنا فرصة التأمل فيما تقع عليه أعيننا, أو يتنبه عليه إدراكنا, مما يحيط بنا من مظاهر التناقض والتغاير, فيدفعنا للتبصر به والبحث عن العلاقات التي تجمع عناصر المشكل أمامنا , وما بينها من "اتساق أو تنافر"[8], فهي بذلك تعطي فرصة لحضور المتضادات في سياق واحد كأن يبدو حسن أحد السياقين, بإزاء قبح الآخر أو العكس.

وتظهر المفارقة على عدة مظاهر وتشكيلات لغوية, سنتعرض إليها, الواحدة تلو الأخرى من خلال تعريفها نظريا, وتطبيقها على الرواية مباشرة :

نوع الملمح	التعريف به	موضعه داخل الرواية
1- **مفارقة الأضداد**	- وهو نمط لصيق بالمباشرة , أو ما سماه علي العشري زايد - المقابلة - دون أن نلغي ارتباطه الوثيق بالموقف العميق الذي يعبر عنه, ويجمع هذا النمط بين المتنافرين للدلالة اللغوية مثل: الموت والحياة[9].	- ... أثناء اعتقادنا أن **الفرح** فعل مقاومة ؟ أم أن بعض **الحزن** من لوازم العشاق؟[10]. - ... لا لأنك **تعيس** , ولا لكونك **سعيدا**[11]. - ... عندما تخلعان أو تنتعلان قلب رجل؟[12] - ... يبث صورا **بالأسود والأبيض**[13] . - حيث الجسور طريقة **حياة** وطريقة **موت**[14]. - ... بنفس الإصرار **واليأس والأمل**[15] . ... إلخ من الأضداد المتوافرة في الرواية.
2- **مفارقة المخادعة**	- يكشف هذا النوع من المفارقة خيبة أمل, مما يتوقعه صاحب الفعل , حيث يقدم موقفا أو مواقف إيجابية فيفاجأ بأن فعله لم يقابل إلا نكرانا وجهودا .[16].	- ... لكنهم جاؤوه عندما اعتقد أنه ظفر بالأمان[17]. - ... لم يشفع له نحيب زوجته ولا عويل صغيره ولا جاء أحد إلى نجدته من الجيران, لا سمع البوليس ولا سمع الله برغم الأصوات المدوية للألات التي كانوا يفتحون بها الباب[18] .

3- مفارقة السخرية	- ويبنى هذا النوع على موقف يناقض ما ينتظر فعله تماما , إذ يأتي فعل مغايرا تمام للوجهة التي يجدر بالإنسان أن يقوم بها, كأن يكون رد فعل من اغتصب حقه - مثلا - الرضاء بالذل والدفاع عنه وتسويغه , فتأتي الصورة كاشفة بعد المفارقة وسخرية الشاعر من مثل هذا السلوك. [19]	- ... سألتها ساخرا : - ألهذا تقتلين أبطالك دائما لتوفري على نفسك جهد إدارة حياتهم؟[20] . - فكرت بسخرية انه قد يكون شخص آخر , قرأ ذلك الكتاب, وراح هذه المرة يسرق لوحات رجل ويرسم تلك الجسور التي كان خالد بن طوبال مولها بها, مستندا الى وصفها في تلك الرواية[21]. - لن أجيبك أرى في سؤالك استخفافا بي وفي جوابي عنه استخفافا بك... [22] - إنك تحتاج إلى أسابيع من مهانة الإجراءات كي تتمكن من السفر إلى باريس[23].
4- مفارقة التحول	- وهو نمط واسع , إذ تبدو الصورة بدلالات معينة, لكنها تتجول إلى دلالات جديدة مغايرة , لما بدأت به كأن تكون الدلالة إيجابية فتتحول سلبية , أو تكون سلبية فتتحول إيجابية , أما مفارقة (الإيجابي- السلبي) فإن الصورة في بدايتها حسنة الدلالة لكنها تنقلب بعد ذلك إلى دلالة سيئة, فتسلب معاني الخير منها[24] .	- .. فالنجاح اكبر جريمة.. [25]. - .. كان الحزن حولي, يفخخ كل ما يبدو لغيري فرحا[26]. - ... كنت أحب شجاعتها , عندما تنازل الطغاة... - ولا افهم جبنها في الحياة ... كما لا أجد تفسيرا لذكائها في رواية وغبائها خارج الأدب [27]. - مذ صدرت فتوى تبشر المجاهدين بمزيد من الثواب إن هم استعملوا السلاح الأبيض الصدي من فؤوس وسيوف وسواطير لقطع الرؤوس, وبقر البطون, وتقطيع الرضع إربا[28].

5- مفارقة الإستحقاق	- وفي هذا المنحى تبدو المفارقة في أن الحق لا يؤول إلى أصحابه أو من هو جدير به , لكنه يؤول إلى أقل الناس جدارة به, كأن يحصل السارق على المال, أو تصبح السلامة حق للجبناء. [33]	- مرة أخرى, الموت يحوم حولك إيغالا بالفتك بك , كلؤم لغم لا ينفجر فيك, وإنما دوما بجوارك يخطئك , ليصبك حيث لا ترى, حين لا تتوقع, يلعب معك لعبة نيرون , الذي كان يضحك , ويقول أنه كان يمزح كلما انقضى على أحد أصحابه, يطعنه بخنجره فأخطأه , اضحك يا رجل فالموت يمازحك ما دام يخطأك كل مرة ليصيب[34].
6- مفارقة الفجاءة	- تقوم المفارقة هنا على مخالفة ما يتوقعه المرء في الموقف الذي يمر به فيفاجأ بحالة مغايرة تماما لما في ذهنه[35] .	- ... ارتبكت , أظنها كانت ستقول لا ولكنها قالت ربما[36]. - نزل علينا أنا وفرانسواز صمت مفاجئ. - شعرت بارتباك أنوثتها, كأنما بدأت أبوابها في انفتاح امام ذلك الرجل الذي لم تكن توليه اهتماما في البدء لا أدري من أين جاء مراد بذلك التحليل الفرويدي , فقد اعتاد أن يقحم الجنس في كل شيء [37].

7-مفارقة الأدوار	- يقوم هذا الضرب على تخلي صاحب الموقف الطيب , عن موقفه الذي اقترن به في ذاكرة الثقافة, ليؤدي دورا جديدا مفارقا لما عرف به, ويختلف هذا الضرب عن مفارقة الإيجابي – السلبي- في أن الإيجابي اكتسب قيمته الحسنة في النص الذي بين أيدينا وحده , في حين أن مفارقة الأدوار تختص في العنصر المعروف لمعانيه الطيبة قبل النص, فيتخلى عنها في النص الذي نعالجه. (38)	- في هذا العنصر استلزم بنا العودة إلى الجزأين السابقين من الثلاثية لمعرفة الدور الذي قامت به حياة , إذ أنها كانت في نظر خالد ترمز إلى الحبيبة وإلى الوطن والبنت, فقد كانت له سندا , لكن في روايتنا هاته انقلب دورها للتحول إلى مجرد امرأة تكفن جثث ضحاياها وتتلهى بقتل عشاقها.(39)
8-مفارقة التقابل	يقوم هذا النمط من المفارقة على موقفين متضادين تماما , تبنى كل واحد منها نظرة تنقض النظرة الأخرى وتلغيها. (39)	- ... ذات مرة راح يقنعنا أثناء مرافعة سياسية , دفاعا عن الديمقراطية أن الجزائريين ككل العرب, ما استطاعوا أن ينجزوا من الإنتصارات غير تلك الشعارات المذكرة ... عندما حاولت معارضة فكرته , وتحجج بانتماء زيان لجيل لا يرى الأمور بهذه الطريقة , قال: - الإبداع وليد أحاسيس ودوافع لا شعورية وأنت لن تدري أبدا مهما اجتهدت, ماذا كان يعني مبدع بلوحة رسمها, أو بقصيدة نظمها قلت : إن كنت تعرف حياة المبدع تدرك ما أراد إيصاله إليه حياته هي المفتاح السري لأعماله . عندما اشتد بنا النقاش , قال متهكما :

		- بربك, كيف تحارب الذي يمنعون عنك حرية الرأي, إن كنت ترفض عدم تطابقي معك في تفسير لوحة؟[40].

ب- المحاجة: أسلوب منطقي يهدف صاحبه إلى "اقناع الأخر بصواب رأيه الذي يتبناه"[41]. وقد قسم أهل المنطق الحجج أقساما مختلفة أعلاها مرتبة الحجة البرهانية , ثم الحجة الجدلية , فالحجة الخطابية, وأدناها الحجة الشعرية.

والملاحظ أن الشعرية اهتمت بالحجة الشعرية, ولم تعر الحجج الأخرى أي اهتمام باعتبارها تميل إلى العاطفة والمشاعر, وللشعرية ملامح في هذا الجانب من بينها:

1- الانقطاع: " تحضر في النص الشعري علاقات اقترانية , وصيغ لغوية وليس بينها علاقات تجانس أو اقتراب, إذ أنها تكون متعارضة متقاطعة وقد عد " رومان جاكبسون" هذه التقطعات طاقات شعرية في النص وعلى الرغم من حالة الانقطاع الدلالي القائم على " وصف فكرتين لا تتوافران على أية علاقة منطقية بينهما "[42]. فإنهما تقدمان فضاءا شعريا لا تحققه الأوضاع المتجانسة لأن الشعرية تمثل " حالة انتقال حاد من كون إلى كون, أي خلق لمسافة توتر شاسع بين الكونين "[43].

موقعه في الرواية	الصفحة
- أي شيء جميل هو في نهايته كارثة, وكيف لا أخشى حالة من الجمال .. كان يلزمني عمر من البشاعة لبلوغها.	19
- عندما امتلأ ذلك الفيلم بالصور , فاجأني إحساس بالأبوة , كأن آلة التصوير التي كانت رفيقة حياتي غدت أنثى تحمل في أحشائها أولادها.	187
- اليوم , حتى البطون الموصدة للأميرات أذابت نيران العشق شموع أختامها الملكية	198

2- التأويل: يتغير النص الأدبي عما كان عليه عند نشأته الأولى وتصبح له دلالات جديدة نظرا لتعدد القراءات فيه, مما يحيل إلى تعدد التأويلات, فالنص الشعري يحتمل

- عادة – تأويلات متعددة وقراءات متباينة, وكلما حقق قدرا أعلى من الشعرية , كانت مجالات التأويل فيه أفضل, عكس النص المعياري الذي يفتقر للشعرية.

وعادة يصنع هذا التأويل بوعي المتلقي, لأنه يكشف رؤيته للنص وهي رؤية ليست مطابقة – بالضرورة – لما أراده الشاعر نفسه , فما نضيفه إلى أنفسنا من معارف مستمدة من النص بعد تأويله " ليس النص نفسه, بل تأويلنا له"[44].

موقعه في الروايـة	الصفحة
- حدث ذلك ذات ديسمبر 1978 عندما ترك لنا بومدين على شاشة التليفزيون ابتسامته الغامضة تلك, ورحل.	19
- لكن لا تهتم, زوربا: يا صديق الأرامل لا تحزن, الجميلات الصغيرات لا يترملن: إنهن يزين قصور سادة الحروب العربية.	12
- كنت أريد امرأة كـ: فينوس" في انزلاق نصف ثوبها, أكسو نصفها, أو أعري نصفها الآخر حسب رغبتي.	56

3- الإنزيـاح: بما أن بعض الدراسات تشير إلى وجود علاقة بين الشعرية والأسلوبية فإن هذه الأخيرة تعد الإنزياح التركيبي – لا سيما التقديم والتاخير- أحد ملامحها المهمة التي تصب في باب الشعرية, بما له أثر في الشعر " ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه, ويلطف لديك موقعه, ثم تنظر فتجد سبب أن أراقك ولطف عندك, أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[45]. فالإنزياح التركيبي يخرق القانون باعتنائه بما يعد استثناء أو نادرا فيه.

موقعه في الروايـــة	الصفحة
– هـي ذي , كمـا الحيـاة, جـاءت مباغتـة كـل التوقعات, لكنها تذهب إلى كل حب حافية مبللة القدمين دوما, لكأنها خارجة لتوها من بركة الخطايا أو ذاهبة صوبها.	12
– أتفهم هذا, إنه حنين العرض, ومقل الرسم أيضا, ولذا تنفذ لوحاته بسرعة كما ترى, معظم لوحاته بيعت.	56

4– الإيقاع: وصف العرب قديما الشعر بأنه : " قول موزون مقفى يدل على معنى" في حين نجد أن الشعرية قد خرقت هذا التحديد , ولم تعد تعترف به على علاته , فليس كل كلام دال على معنى, ويحقق شرطي الوزن والقافية بالضرورة شعرا , لأن الشعر " الكامل هو الذي يستغل كل أدواته , والقصيدة النثرية بإهمالها لمقومات الصوتية للغة تبدو دائما كما لو كانت شعرا أبتر "[46] ونجد أن الإيقاع لم يعد منصب عند الشعر فحسب , بل تجاوز ذلك إلى حدود النصوص النثرية.

وقعه في الروايـــة	الصفحة
– ردت عليه بضحكة ماكرة , ضحكة ماطرة تجاهلت رذاذها.	217
– كانت ألمح لقولها مرة – " كل شيء يعيدنا إليك".	182
– وكنت أجيبها مصححا آنذاك – " وكل شيء يبقيني فيك".	
* لفرط انشغال بها, كدت أنسى انتظاري لها.	198
* لا تسرع بنعشه فتتعثرون بضحكته, هو المتئد المتمهل .	
– لا تستعجلوه هو الواثق كالتأمل.	284
– يا إله الجسور , يا إله العبور الأخير.	
* لكنها انحنت ببطئ أنثوي, كما تنحني زنبقة برأسها, وبدون أن تخلع صوتها, خلعت ما علق نعليها من دمي, وراحت تواصل الرقص حافية مني.	284

5- الأثر النفسي: لقد ميز جون كوهن مستويين من الدلالة , سمى الأولى : دلالة المطابقة, وسمى الثانية: دلالة الإيحاء , ورأى أن لكل من هاتين الدلالتين مرجعية واحدة, ولكنهما تختلفان على المستوى النفسي لأن دلالة المطابقة ترتبط بالاستجابة العقلية, أم دلالة الإيحاء فتشير إلى الاستجابة العاطفية , "وقرن وظيفة المطابقة بالنثر في حين قرن وظيفة الإيحاء بالشعر"[48].

موقعه في الروايــة	الصفحة
- مشتعلين كنا بزمن النفط الأول, وكانت لنا أحلام رمال ذهبية , تسربت من أصابع الوطن إلى جيوب الذين كانوا يبتلعون البلاد, ويتقدمون أسرع من لهاث الصحراء , يا لسراب الشعارات ! إنها خدعة التائه بين كثبان وطن من الرمال المتحركة, لا يعول على وتد يدق فيه, ولا على واحدة تلوح منه!	42
- قسنطينة الميمة جيتك به صغيرك العائد من براد المنافي , مرتعدا كعصفور ضميه , كان عليه أن يقضي عمرا من أجل بلوغ صدرك, وليدك المغبون, بفرط ما هو لك معاد هو, لفرط ما كان خالد ما عدا زيان لفرط ما أصبح زيان, ما وجد له مستقرا غير قبر أخيه. - كما تمثل هذا الملمح في اشتياق وحنين زيان للوطن وهو في الغربة وعلى سرير المرض.	312

6- الملائمـة: في لغة النثر يتحقق مستوى من التجانس, ويكاد هذا التجانس يكون تاما في أغلب استخداماتها , إذ يشكل الفعل والفاعل – مثلا- سياقا متطابقا لا تنافر فيه , ولا يحتمل تأويلا, أو انزياحا دلاليا, مهما كان ضئيلا في حين أن اللغة الشعرية تعنى به ففي حين نجد الفعل في اللغة النثرية , دالا على أمر ما , وينتظر أن يسند إلى شيء متجانس معه مثل : " حفر العامل الصخر ", لا نجد فيها انزياحا اسناديا أو دلاليا , في حين نجد أن الأمر مختلفا إذا جاءت الجملة على نحو " حفرت نظرته قلب عدوه " لأن الدلالة ابتعدت نسبيا عن درجة الصفر.

إن وجوه الملائمة متعددة في السياق العربي, منها مساندة الإسناد الدلالي من مثل الشيء ولونه, أو الشيء وصفته, ويتحقق الإنزياح "حيث يسند لون الماء إلى شيء لا يناسبه أو تسند صفة المحسوس إلى غير المحسوس, ومنها الملائمة الإسنادية النحوية , من مثل الفعل وفاعله ومفعوله, أو المبتدأ أو الخبر"[(48)] .

موقعه في الروايــة	الصفحة
– ما نفع العلم الذي يزيد الأموات حزنا !	98
– كنت سأهديك إياها لتعليقها على قلبك.. لا على جدران بيتك	220
– طبعا لم أصدقها , كنت أصدق فيها بياض الكذب وفهمت كم كان يلزمها من حقائب لتهريب كذبة واحدة.	203

الخطاب السردي عند أحلام في روايتها "عابر سرير" قد استعار لغة الشعر – كما هو مبين– ويرى فيه البعض احتفاء مبالغا فيه نظرا لكونه بلاغة شعرية مستهلكة ولا تخرج من فضاء لغة الذكورة المهيمنة على الذاكرة الانشائية العربية، حتى إننا لنتساءل عن سبب رغبة الكاتبة في إسناد مهمة السرد لمذكر رغم كون الكاتبة أنثى.

الهوامش:

1. H.Suhamy , la poétique , que sais je ? nº 2311, puf , Paris , 1986 ,P 101
2. تزفيدان تودوروف , الشعرية , ترجمة عثمان الميلودي, دار قرطبة , الدار البيضاء, ط1، 1999 , ص5.
3. سامح الرواشدة , فضاءات الشعرية , المركز القومي للنشر , (د.ط), 1999, ص44.
4. المرجع نفسه, ص 45.
5. رمان جاكبسون , قضايا الشعرية , ترجمة محمد الولي , مبارك حنور, دار تبقال للنشر, الدار البيضاء, المغرب, ط1, 1988, ص19.
6. سامح الرواشدة , فضاءات الشعرية , ص 13.
7. المرجع نفسه , ص13.
8. المرجع نفسه , ص14.
9. المرجع نفسه , ص15.
10. أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشورات أحلام مستغانمي، لبنان، ط2، 2003، ص9.
11. الرواية، ص9.
12. المصدر نفسه، ص11.
13. المصدر نفسه، ص43.
14. المصدر نفسه، ص95.
15. المصدر نفسه، ص153.
16. سامح الرواشدة , فضاءات الشعرية , ص17 .
17. الرواية, ص261.
18. المصدر نفسه, ص 263.
19. سامح الرواشدة , الفضاءات الشعرية, ص 18.
20. الرواية, ص188.
21. المصدر نفسه, ص 55.
22. المصدر نفسه, ص 193.
23. المصدر نفسه, ص51.
24. سامح الرواشدة، فضاءات الشعرية، ص22.
25. الرواية، ص35.
26. المصدر نفسه, ص51.
27. المصدر نفسه, ص17.
28. المصدر نفسه, ص30.
29. سامح الرواشدة، فضاءات الشعرية، ص23.

30. الرواية، ص10.
31. المصدر نفسه، ص36.
32. المصدر نفسه، ص38-39.
33. سامح الرواشدة، فضاءات الشعرية، ص27.
34. الرواية، ص26.
35. سامح الرواشدة، فضاءات الشعرية، ص28.
36. الرواية، ص13.
37. المصدر نفسه، ص73.
38. سامح الرواشدة، فضاءات الشعرية، ص23.
39. المرجع نفسه، ص25.
40. الرواية، ص73-74.
41. سامح الرواشدة، فضاءات الشعرية، ص41.
42. المرجع نفسه، ص41.
43. المرجع نفسه، ص51.
44. المرجع نفسه، ص56.
45. المرجع نفسه، ص53.
46. المرجع نفسه، ص58.
47. المرجع نفسه، ص62.
48. المرجع نفسه، ص47.